باحثة البادية

(٥)

الكتابة

« اما انتقاد رسائلها من جهة صناعة الكتابة فحسبي ان اقرر من غير محاباة أنها اكتب سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر ، بل هي تعطينا في كتاباتها صورة الكاتبات الغربيات اللاتي تفوّقن على كثير من الكتاب »

احمد لطفي السيد بك (١)

« اني رأيت في كتابة هذه السيدة حدة في بعض الموضوعات وكأنها معذورة في حدتها لامتلاك الموضوع نفسها وحواسها فكتبت فيه وهي ممتلئة حنقاً »

الشيخ عبد الكريم سلمان (٢)

« إنها اعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه ذوات العمائب يناضلن أرباب العمائم في ميداني الكتابة والخطابة »

احمد زكي باشا (٣)

« لله درك ان نثرتِ ودر حفني (٤) ان نثر »

حافظ ابراهيم بك (٥)

وما حاجتي الى الكلام عنها كاتبة ؟ انا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالمقدرة الكتابية ، واكتفينا بما ورد من أقوالها في الفصول الماضية ، لاثبتنا على الورق ما قد سبق وقرّره حكمنا الصامت ، وهو انها كاتبة كبيرة . يطلق الناس عادةً اسم « الكاتب الكبير » على من كتب كثيراً ، وهم في ذلك مخطئون . ان من حملة الاقلام من لهُ مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير ، لانهُ ليس كاتباً على الاطلاق . انهُ ينقصهُ ما يسميهِ الافرنج « قماش الكاتب »

---

(١) في مقدمة « النسائيات »

(٢) و (٣) انظر باب التقاريظ في النسائيات

(٤) كان المرحوم حفني بك حاضراً في احتفال التأبين الذي اقيم لكريمته وذلك قبل وفاته باسابيع قليلة

(٥) من مرثاة شعرية القاها حافظ بك في حفلة التأبين

النطق . وأخيراً الشجاعة الادبية اللازمة لابداء الرأي بكرامة وسذاجة

كثير من مقالاتها مكتوب بكيفية خطابية وهي كيفية فعالة . غير انها في خطبها تتبع خطة المحدث البسيط لان خطبها لم تكن في الواقع الا محاضرات ، وهذه تشغل الدرجة الواقعة بين الحديث المألوف والخطابة الصرفة . وقد تركت بعض المنظومات لانها كانت تحب الكلام الموزون ، وكل ما نثرت موزون منسق . ولا اعرف في كل ما كتبت نبذة أبدع من هذه التي تبدو فيها مقدرة مزدوجة كتابية وخطابية ، يختلط بها شيء من الشجن الشعري وكآبة المرأة الغزيرة العواطف الدامية الشعور !

« يصبونه (الماء) فينصب ويريقونه فيختفي في الارض ويضعونه في كل آنية معوجة وملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بكل ما يراد به من الالوان . فيخرجه الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه الى السحاب وطوراً تقذف به الى الارض وآنة تماسكه بعقيها فيتحول برداً وآونة تحمي عليه براكينها فيخرج ملتهباً . وحيناً تحبث راغته بكبريتها وزرنيخها فيمنعه الناس اذا احسوا منه غير ما يريدون وهو يرى . ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكراً فيطرب ويذيبون به الحنظل فيمر . وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بجميل . وهو بلا ثمن في اكثر بقاع الارض وأرخص الاشياء في أقلها . انه مثلي يا مي يذهب ضياعا ! » (١٢)

ما أوجع هذه الكلمة وأوجع المرارة التي أملتها ! لقد فعل الحزن هنا ما يفعله في كل نفس صالحة فكان اليد المذهبة الخصب الجانية الخيرات . إن لهف أيام ولواعج عمر انتجت ابحاثاً قليلة ولكنها فريدة من نوعها في الآداب العربية . وسنقف على زبدة هذه الابحاث في الفصلين المقبلين اذ نعالج الباحثة ناقدة ومصلحة فنجد تحت اكثر الآراء تعقلاً ورزانة . لو لم يكن للحزن من منفعة سوى انتباه ضحيته الى ضرورة الاصلاح وعثورها على مواطن الضعف والسقام من بيئتها ، ولو لم يكن له من منفعة سوى تمزيق حجب الزهو والغرور عن محيا الرصانة والحكمة — لكفى به قوة تكب عليها البركات على كر الدهور .

كلا لم تمض تراحتك جزافاً ، يا روح العزيزة ، اذ لا يتلاشى شيء في هذا الوجود العظيم . ولا ذهبت منك الندوة ضياعاً لان الحياة والموت العوبتان في يد النظام المطلق ، لنظام التحول الشامل . وما كان قومك بذلك التحول فيك الا القوم الرابحين !

(مي)

(١٢) « بين كاتبتين » نشرت في « العروسة »